



ذكر ولا وجود:(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا  
..?)

تلوها لمسة أخرى عن حقيقة أصله ونشأته , وحكمة الله في خلقه ,  
وتزويده بطاقاته ومداركه:(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه  
فجعلناه سميعا بصيرا) . .

ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق , وعونه على الهدى , وتركه بعد ذلك  
لمصيره الذي يختاره:(إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) . .

وبعد هذه اللمسات الثلاث الموحية , وما تثيره في القلب من تفكير عميق ,  
ونظرة إلى الوراء . ثم نظرة إلى الأمام , ثم التحرج والتدبر عند اختيار  
الطريق . . بعد هذه اللمسات الثلاث تأخذ السورة في الهتاف للإنسان وهو  
على مفترق الطريق لتحذيره من طريق النار . . وترغيبه في طريق الجنة ,  
بكل صور الترغيب , وبكلهواتف الراحة والمتاع والنعيم والتكريم: إنا أعتدنا  
للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا . إن الأبرار يشربون من كأس كان  
مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . .

وقبل أن تمضي في عرض صور المتاع ترسم سمات هؤلاء الأبرار في  
عبارات كلها انعطاف ورقة وجمال وخشوع يناسب ذلك النعيم الهائئ  
الرغيد:(يوفون بالنذر , ويخافون يوما كان شره مستطيرا , ويطعمون  
الطعام - على حبه - مسكينا ویتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد  
منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) . .

ثم تعرض جزاء هؤلاء القائمين بالعزائم والتكاليف , الخائفين من اليوم  
العبوس القمطير , الخيرين المطعمين على حاجتهم إلى الطعام ,  
يبتغون وجه الله وحده , لا يريدون شكورا من أحد , إنما يتقون اليوم  
العبوس القمطير !

تعرض جزاء هؤلاء الخائفين الوجلين المطعمين المؤثرين . فإذا هو الأمن  
والرخاء والنعيم اللين الرغيد:

فوقاهم الله شر ذلك اليوم , ولقاهم نصره وسرورا , وجزاهم بما صبروا  
جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا .  
ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة  
وأكواب كانت قوارير , قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها  
كأسا كان مزاجها زنجبيلا , عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم  
ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما  
وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق , وحلوا أساور من فضة  
وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا  
.

فإذا انتهى معرض النعيم اللين الرغيد المطمئن الهائئ الودود اتجه  
الخطاب إلى رسول الله [ ص ] لتثبيته على الدعوة - في وجه الإعراض  
والكفر والتكذيب - وتوجيهه إلى الصبر وانتظار حكم الله في الأمر ;  
والإتصال بربه والاستمداد منه كلما طال الطريق:(إنا نحن نزلنا عليك  
القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم أثما أو كفورا . واذكر اسم  
ربك بكرة وأصيلا , ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) . .

ثم تذكيرهم باليوم الثقيل الذي لا يحسبون حسابه ; والذي يخافه الأبرار ويتقونه , والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله , الذي خلقهم ومنحهم ما هم فيه من القوة , وهو قادر على الذهاب بهم , والإتيان بقوم آخرين ; لولا تفضله عليهم بالبقاء , لتمضي مشيئة الابتلاء . ويلوح لهم في الختام بعاقبة هذا الابتلاء: إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا . نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا . إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله , إن الله كان عليما حكيما . يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما . .

تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقدير الله في هذه النشأة , على أساس الابتلاء , وتختتم ببيان عاقبة الابتلاء , كما اقتضت المشيئة منذ الابتداء . فتوحي بذلك البدء وهذا الختام بما وراء الحياة كلها من تدبير وتقدير , لا ينبغي معه أن يمضي الإنسان في استهتاره . غير واع ولا مدرك , وهو مخلوق لينلى , وموهوب نعمة الإدراك لينجح في الابتلاء .

وبين المطلع والختام ترد أطول صورة قرآنية لمشاهد النعيم . أو من أطولها إذا اعتبرنا ما جاء في سورة الواقعة من صور النعيم , وهو نعيم حسي في جملته , ومعه القبول والتكريم , وهو بتفصيله هذا وحسينه يوحى بمكيبته , حيث كان القوم قريبي عهد بالجاهلية , شديدي التعلق بمتاع الحواس , يبهرهم هذا اللون ويعجبهم , ويشير تطلعهم ورغبتهم . وما يزال هذا اللون من المتاع يثير تطلع صنوف من الناس , ويصلح جزاء لهم يرضي أعمق رغباتهم . والله أعلم بخلقهم ما يصلح لهم وما يصلح قلوبهم , وما يليق بهم كذلك وفق تكوينهم وشعورهم . وهناك ما هو أعلى منه وأرق كالذي جاء في سورة القيامة:(وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة). . والله أعلم بما يصلح للعباد في كل حال .

### الدرس الأول: 1 - 3 تذكير الإنسان ببدايته وابتلائه وازدواجية استعداده

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ? إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا). .

هذا الاستفهام في مطلع السورة إنما هو للتقرير ; ولكن وروده في هذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه:ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ? ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها ? ثم ألا يفعل تدبرها في نفسه شيئا من الشعور باليد التي دفعته إلى مسرح الحياة , وسلطت عليه النور , وجعلته شيئا مذكورا بعد أن لم يكن شيئا مذكورا ?

إنها إحياءات كثيرة تنبض من وراء صيغة الاستفهام في هذا المقام . وهي إحياءات رفيعة وعميقة تثير في النفس تأملات شتى:

واحدة منها تتجه بالنفس إلى ما قبل خلق الإنسان ووجوده ابتداء . يعيش فيها مع هذا الكون وقد خلا من الإنسان . . كيف تراه كان ? . . والإنسان مخلوق مغرور في نفسه وفي قيمته , حتى لينسى أن هذا الكون كان وعاش قبل أن يوجد هو بأدهار وأزمان طوال . ولعل الكون لم يكن يتوقع خلق شيء يسمى "الإنسان" . . حتى انبثق هذا الخلق من إرادة الله فكان !

وواحدة منها تتجه إلى اللحظة التي انبثق فيها هذا الوجود الإنساني . وتضرب في تصورات شتى لهذه اللحظة التي لم يكن يعلمها إلا الله ;

والتي أضافت إلى الكون هذه الخليقة الجديدة , المقدر أمرها في حساب الله قبل أن تكون ! المحسوب دورها في خط هذا الكون الطويل !

وواحدة منها تتجه إلى تأمل يد القدرة وهي تدفع بهذا الكائن الجديد على مسرح الوجود ; وتعدده لدوره , وتعد له دوره , وتربط خيوط حياته بمحور الوجود كله ; وتهيئ له الظروف التي تجعل بقاءه وأداء دوره ممكنا وميسورا ; وتتابعه بعد ذلك في كل خطوة , ومعها الخيط الذي تشده به إليها مع سائر خيوط هذا الكون الكبير !

وإحباءات كثيرة وتأملات شتى , يطلقها هذا النص في الضمير . . ينتهي منها القلب إلى الشعور بالقصد والغاية والتقدير , في المنشأ وفي الرحلة وفي المصير .

فأما امتداد هذا الإنسان بعد ذلك وبقاؤه فكانت له قصة أخرى:

(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) . .

والأمشاج: الأخلاط . وربما كانت هذه إشارة إلى تكون النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح . وربما كانت هذه الأخلاط تعني الوراثة الكامنة في النطفة , والتي يمثلها ما يسمونه علميا "الجينات" وهي

من الآية 3 الى الآية 6

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا  
وَيَسْعِيرًا (4) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ  
اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6)

وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولا ولسففات الجنين العائلية أخيرا . وإليها يعزى سير النطفة الإنسانية في رحلتها لتكوين جنين إنسان , لا جنين أي حيوان آخر . كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة في الأسرة . . ولعلها هي هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى . .

خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج , لا عينا ولا جزافا ولا تسلية , ولكنه خلق ليبتلي ويمتحن ويختبر . والله سبحانه يعلم ما هو ؟ وما اختباره ؟ وما ثمرة اختباره ؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود , وأن تترتب عليه آثاره المقدره في كيان الوجود , وأن تتبعه آثاره المقدره . ويجزى وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه .

ومن ثم جعله سميعا بصيرا . أي زوده بوسائل الإدراك , ليستطيع التلقي والاستجابة . وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار . ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار . .

وإذن فإن إرادة الله في امتداد هذا الجنس وتكرر أفراده بالوسيلة التي قدرها , وهي خلقته من نطفة أمشاج . . كانت وراءها حكمة . وكان وراءها قصد . ولم تكن فلتة . . كان وراءها ابتلاء هذا الكائن واختباره . ومن ثم وهب الاستعداد للتلقي والاستجابة , والمعرفة والاختبار . . وكان كل شيء في خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه في الحياة . . بمقدار !

ثم زوده إلى جانب المعرفة ، بالقدرة على اختيار الطريق ، وبين له الطريق الواصل . ثم تركه ليختاره ، أو ليضل ويشرد فيما وراءه من طرق لا تؤدي إلى الله :

(إنا هديناه السبيل: إما شاكرا وإما كفورا). . .

وعبر عن الهدى بالشكر . لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدي ، بعد إذ يعلم أنه لم يكن شيئا مذكورا ، فأراد ربه له أن يكون شيئا مذكورا . ووهب له السمع والبصر . وزوده بالقدرة على المعرفة . ثم هداه السبيل . وتركه يختار . . الشكر هو الخاطر الأول الذي يرد على القلب المؤمن في هذه المناسبة . فإذا لم يشكر فهو الكفور . . بهذه الصيغة الموعلة في الدلالة على الكفران .

ويشعر الإنسان بجدية الأمر ودقته بعد هذه اللمسات الثلاث . ويدرك أنه مخلوق لغاية . وأنه مشدود إلى محور . وأنه مزود بالمعرفة فمحاسب عليها . وأنه هنا ليبتلئ ويحتار الابتلاء . فهو في فترة امتحان يقضيها على الأرض ، لا في فترة لعب ولهو وإهمال ! ويخرج من هذه الآيات الثلاث القصار بذلك الرصيد من التأملات الرفيعة العميقة ، كما يخرج منها مثقل الظهر بالتبعة والجد والوقار في تصور هذه الحياة ، وفي الشعور بما وراءها من نتائج الابتلاء ! وتغير هذه الآيات الثلاث القصار من نظرتة إلى غاية وجوده ، ومن شعوره بحقيقة وجوده ، ومن أخذه للحياة وقيمها بوجه عام .

الدرس الثاني: 4 - 22 من صفات الأبرار وصور من نعيم الجنة لهم

ومن ثم يأخذ في عرض ما ينتظر الإنسان بعد الابتلاء ، واختياره طريق الشكر أو طريق الكفران .

فأما ما ينتظر الكافرين ، فيجمله إجمالاً ، لأن ظل السورة هو ظل الرخاء الظاهر في الصورة والإيقاع . وظل الهتاف المغري بالنعيم المريح . فأما العذاب فيشير إليه في إجمال:

(إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً). . .

سلاسل للأقدام ، وأغلالاً للأيدي ، ونارا تتسعر يلقي فيها بالمسلسلين المغلولين !

ثم يسارع السياق إلى رخاء النعيم:

من الآية 7 الى الآية 10

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7) وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَيَّ حُبِّهِ  
مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (9)  
إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا قَمَطِرًا (10)

(إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا). . .

وهذه العبارة تفيد أن شراب الأبرار في الجنة ممزوج بالكافور ، يشربونه في كأس تغترف من عين تفجر لهم تفجيرا ، في كثرة ووفرة . . وقد كان

العرب يمزجون كؤوس الخمر بالكافور حيناً وبالزنجبيل حيناً زيادة في التلذذ بها , فهام أولاء يعلمون أن في الجنة شراباً طهوراً ممزوجاً بالكافور , على وفر وسعة . فأما مستوى هذا الشراب فمفهوم أنه أحلى من شراب الدنيا , وأن لذة الشعور به تتضاعف وترقى , ونحن لا نملك في هذه الأرض أن نحدد مستوى ولا نوعاً للذة المتاع هناك . فهي أوصاف للتقريب . يعلم الله أن الناس لا يملكون سواها لتصور هذا الغيب المحجوب .

والتعبير يسميهم في الآية الأولى (الأبرار) ويسميهم في الآية الثانية (عباد الله) . . إيناساً وتكريماً وإعلاناً للفضل تارة , وللقرب من الله تارة , في معرض النعيم والتكريم .

ثم يعرف بهؤلاء الأبرار عباد الله الذين قسم لهم هذا المتاع:

(يوفون بالندر , ويخافون يوماً كان شره مستطيراً , ويطعمون الطعام - على حبه - مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمططيراً) . .

وهي صورة وضيئة شفافة لقلوب مخلصه جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة , مع رحمة ندية بعباده الضعاف , وإيثار على النفس , وتخرج وخشية لله , ورغبة في رضاه , وإشفاق من عذابه تبعثه التقوى والجد في تصور الواجب الثقيل .

(يوفون بالندر) فيفعلون ما اعتزموا من الطاعات , وما التزموا من الواجبات . فهم يأخذون الأمر جداً خالصاً لا يحاولون التغلث من تبعاته , ولا التفصي من أعبائه , ولا التخلي عنه بعد اعتزامه . وهذا معنى أنهم يوفون بالندر . فهو أعم من المعنى العرفي المتبادر من كلمة (الندر) .

(ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) . . فهم يدركون صفة هذا اليوم , الذي يتفشى شره ويصيب الكثيرين من المقصرين والمسئئين . فيخافون أن ينالهم شيء من شره . وهذه سمة الأتقياء , الشاعرين بثقل الواجب وضخامة التكاليف , الخائفين من التقصير والقصور , مهما قدموا من القرب والطاعات .

(ويطعمون الطعام - على حبه - مسكيناً ويتيماً وأسيراً) . .

وهي تصور شعور البر والعطف والخير ممثلاً في إطعام الطعام , مع حبه بسبب الحاجة إليه . فمثل هذه القلوب لا يقال عنها: إنها تحب الطعام الذي تطعمه للضعاف المحاويج على اختلاف أنواعهم . إلا أن تكون في حاجة هي إلى هذا الطعام , ولكنها تؤثر به المحاويج .

وهذه اللفتة تشي بقسوة البيئة في مكة بين المشركين ; وأنها كانت لا تفضي بشيء للمحاويع الضعاف ; وإن كانت تبدل في مجالات المفارقة الشيء الكثير . فأما الأبرار عباد الله فكانوا واحة ظليلة في هذه الهاجرة الشحيحة . وكانوا يطعمون الطعام بأريحية نفس , ورحمة قلب , وخلوص نية . واتجاه إلى الله بالعمل , يحكيه السياق من حالهم , ومن منطوق قلوبهم .

(إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا  
يوما عبوسا قمطريرا) . .

فهي الرحمة الفائضة من القلوب الرقيقة الرقيقة , تتجه إلى الله تطلب  
رضاه . ولا تتبغى بها جزاء من الخلق ولا شكرا , ولا تقصد بها استعلاء على  
المحتاجين ولا خيلاء . كما تتقي بها يوما عبوسا شديد العبوس , تتوقعه

من الآية 11 الى الآية 18

فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَخَزَّاهُمْ يَمَا صَيَّرُوا جَنَّةً  
وَخَرِيرًا (12) مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13) وَذَانِبَةً  
عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ فِيهَا قُلُوبُهُمْ تَذَلُّلًا (14) وَنُطَافٌ عَلَيْهِمْ بَآئِنَةٌ مِّنْ فِصَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ  
قَوَارِيرًا (15) قَوَارِيرَ مِنْ فِصَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا  
رَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18)

وتخشاه , وتتقيه بهذا الوقاء . وقد دلهم رسول الله [ ص ] عليه وهو  
يقول: " اتق النار ولو بشق تمره " . .

وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة  
النبيلة الكريمة , ووسيلة الإشباع لحاجات المحاويع . ولكن صور الإحسان  
ووسائله قد تتغير بحسب البيئات والظروف , فلا تظل في هذه الصورة  
البدائية المباشرة . إلا أن الذي يجب الاحتفاظ به هو حساسية القلوب ,  
وجيوية العاطفة , والرغبة في الخير ابتغاء وجه الله , والتجرد عن البواعث  
الأرضية من جزاء أو شكر أو نفع من منافع الحياة !

ولقد تنظم الضرائب , وتفرض التكاليف , وتخصص للضمان الاجتماعي ,  
ولإسعاف المحاويع , ولكن هذا إنما يعني بشطر واحد من مزايا الاتجاه  
الإسلامي الذي ترمز إليه تلك الآيات , والذي توخاه بفريضة الزكاة . . هذا  
الشطر هو كفاية حاجة المحتاجين . . هذا شطر . . والشطر الآخر هو  
تهذيب أرواح البادلين , ورفعها إلى ذلك المستوى الكريم . وهو شطر لا  
يجوز إغفاله ولا التهوين من شأنه فضلا على أن تنقلب المعايير فيوصم  
ويقبح وبشوه , ويقال: إنه إذلال للآخذين وإفساد للواهبين .

إن الإسلام عقيدة قلوب , ومنهج تربية لهذه القلوب . والعاطفة الكريمة  
تهذب صاحبها وتنفع من يوجهها إليه من إخوانه . فتقي بشطري التربية  
التي يقصد إليها هذا الدين .

ومن ثم كان ذلك التصوير الكريم لذلك الشعور الكريم .

(فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) . .

يجعل السياق بذكر وقايتهم من شر ذلك اليوم الذي كانوا يخافونه ,  
ليطمئنهم في الدنيا وهم يتلقون هذا القرآن ويصدقونه ! ويذكر أنهم  
تلقوا من الله نضرة وسرورا , لا يوما عبوسا قمطريرا . جزاء وفاقا على  
خشيتهم وخوفهم , وعلى نداوة قلوبهم ونضرة مشاعرهم .

ثم يمضي بعد ذلك في وصف مناعم الجنة التي وجدوها:

(وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) . . جنة يسكنونها وحريرا يلبسونه .

(متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا). . فهم في جلسة مريحة مطمئنة والجو حولهم رخاء ناعم دافئ في غير حر , ندي في غير برد . فلا شمس تلهب النسائم , ولا زمهرير وهو البرد القارس ! ولنا أن نقول: إنه عالم آخر ليست فيه شمسا هذه ولا شمس أخرى من نظائرها . . وكفى !

(ودانية عليهم ظلالها . وذلك قطوفها تذليلا). . وإذا دنت الظلال ودنت القطوف فهي الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الخيال !

فهذه هي الهيئة العامة لهذه الجنة التي جرى الله بها عباده الأبرار الذين رسم لهم تلك الصورة المرهفة اللطيفة الوضيئة في الدنيا . . ثم تأتي تفصيلات المناعم والخدمات . .

ويطاف عليهم بآنية من فضة , وأكواب كانت قوارير , قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا . .

فهم في متاعهم . متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الدانية والجو الرائق . . يطاف عليهم بأشربة في آنية من فضة , وفي أكواب من فضة كذلك , ولكنها شفة كالقوارير , مما لم تعهده الأرض في آنية الفضة . وهي بأحجام مقدره تقديرا يحقق المتاع والجمال . ثم هي تمزج بالزنجبيل كما مزجت مرة بالكافور .

من الآية 19 الى الآية 22

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا (20) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضِرٌ وَإِسْتِزْقٌ وَّخُلُوعٌ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاءَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)

وهي كذلك تملأ من عين جارية تسمى سلسبيلا , لشدة عذوبتها واستساعتها لدى الشاربين !

وزيادة في المتاع فإن الذين يطوفون بهذه الأواني والأكواب بالشراب هم غلمان صباح الوجوه , لا يفعل فيهم الزمن , ولا تدركهم السن ; فهم مخلدون في سن الصباحة والصبا والوضاءة . وهم هنا وهناك كاللؤلؤ المنثور:

(ويطوف عليهم ولدان مخلدون , إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا). .

ثم يحمل السياق خطوط المنظر , ويلقي عليه نظرة كاملة تلخص وقعه في القلب والنظر:

(وإذا رأيت - ثم - رأيت نعيما وملكا كبيرا). .

نعيما وملكا كبيرا . هو الذي يعيش فيه الأبرار المقربون عباد الله هؤلاء , على وجه الإجمال والعموم ! ثم يخصص مظهرها من مظاهر النعيم والملك الكبير ; كأنه تعليق لهذا الوصف وتفسير:



(عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق , وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) . .

والسندس الحرير الرقيق , والإستبرق الحرير السميك المبطن . . وهم في هذه الزينة وهذا المتاع , يتلقونه كله من (ربههم) فهو عطاء كريم من معط كريم . وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعيم !

ثم يتلقون عليه الود والتكريم:

(إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً) . .

يتلقون هذا النطق من الملاً الأعلى . وهو يعدل هذه المناعم كلها , ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها . .

وهكذا ينتهي ذلك العرض المفصل والتهنئة الموحى للقلوب , الهمزة إلى ذلك النعيم الطيب والفرار من السلاسل والأغلال والسعير . . وهما طريقان . طريق مؤد إلى الجنة وهذه وطريق مؤد إلى السعير !

الدرس الثالث: 23 - 26 إنزال القرآن وتوجيه الدعاة إلى زادهم وهو الإتصال بالله

وبعد انتهاء هذا الهمزة إلى الجنة ونعيمها الهنيء الرعيد , يعالج حالة المشركين المصرين على العناد والتكذيب , الذين لا يدركون حقيقة الدعوة , فيسأومون عليها الرسول [ ص ] لعله يكف عنها , أو عما يؤذيهم منها . وبين المساومة للنبي [ ص ] وفتنة المؤمنين به وإيذائهم , والصد عن سبيل الله , والإعراض عن الخير والجنة والنعيم . . بين هذا كله يحيى المقطع الأخير في السورة يعالج هذا الموقف بطريقة القرآن الكريم:

(إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً) . .

وفي هذه الآيات الأربع تكمن حقيقة كبيرة من حقائق الدعوة الإيمانية . حقيقة ينبغي أن يعيش فيها الدعاة إلى الله طويلاً , وأن يتعمقوها تعمقاً كاملاً , وأن ينظروا بتدبر في مدلولاتها الواقعية والنفسية والإيمانية الكبيرة .

لقد كان رسول الله [ ص ] يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وحده . وهو لم يكن يواجه في نفوسهم مجرد عقيدة . ولو كان الأمر كذلك لكان أيسر كثيراً . فإن عقيدة الشرك المهلهلة التي كانوا عليها لم تكن من القوة والثبات بحيث يصمدون بها هكذا لعقيدة الإسلام القوية الواضحة البسيطة . إنما كانت الملابس التي تحيط بالعقيدة وبالموقف هي التي تقود إلى تلك المعارضة العنيدة , التي شهدت بها الروايات التاريخية , وحكاها القرآن في مواضع منه شتى . . كانت المكانة الاجتماعية , والاعتزاز بالقيم السائدة في البيئة , وما يتلبس

من الآية 23 الى الآية 23

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23)

بها كذلك من مصالح مادية . . هي العنصر الأول الذي يقود إلى التشبث بالعتيدة الواهية الظاهرة البطلان , في وجه العتيدة القوية الظاهرة الاستقامة . . ثم كانت صور الحياة الجاهلية ومتاعها ولذائدها وشهواتها إلى جانب ذلك تزيد المقاومة والعناد والتأبي على العتيدة الجديدة , وما فيها من اتجاهات أخلاقية وقيم رفيعة , لا تسمح بانطلاق الغرائز والشهوات ; ولا بالحياة العائنة الماجنة المطلقة من كوابح الأخلاق .

وهذه الأسباب - سواء ما يتعلق منها بالمكانة والقيم الاجتماعية والسلطان والمال والمصالح , وما يتعلق منها بالإلف والعادة وصور الحياة التقليدية , وما يتعلق منها بالانطلاق من القيم والقيود الأخلاقية - كانت قائمة في وجه الدعوة الأولى , وهي هي قائمة في وجه الدعوة في كل أرض وفي كل جيل . وهي تمثل العناصر الثابتة في معركة العتيدة , التي جعلها معركة عنيدة لا تنتهي من قريب ; وتجعل مشاقها وتكاليفها والثبات عليها من أعسر التكاليف .

ومن ثم ينبغي للدعاة إلى دين الله في أي أرض وفي أي زمان أن يعيشوا طويلا في الحقيقة الكبيرة الكامنة في تلك الآيات , وملابسات نزولها على الرسول [ ص ] فهي ملابسات معركة واحدة يخوضها كل صاحب دعوة إلى الله , في أي أرض وفي أي زمان !

لقد تلقى رسول الله [ ص ] التكليف من ربه لينذر , وقيل له : (يا أيها المدثر . قم فأندر) . . فلما أن نهض بالتكليف واجهته تلك العوامل والأسباب التي تصد القوم عن الدعوة الجديدة , وتثير في نفوسهم التشبث بما هم عليه - على شعورهم بوهنه وهلهته - وتقودهم إلى العناد الشديد , ثم إلى الدفاع العنيد عن معتقداتهم وأوضاعهم ومكانتهم ومصالحهم . ومألوف حياتهم , ولذائدهم وشهواتهم . . إلى آخر ما تهدده الدعوة الجديدة أشد التهديد .

وأخذ هذا الدفاع العنيد صوراً شتى , في أولها إيذاء القلة المؤمنة التي استجابت للدعوة الجديدة , ومحاولة فتنتها عن عقيدتها بالتعذيب والتهديد . ثم تشويه هذه العتيدة وإثارة الغبار حولها وحول نبيها [ ص ] بشتى التهم والأساليب . كي لا ينضم إليها مؤمنون جدد . فمنع الناس عن الانضمام إلى راية العتيدة قد يكون أيسر من فتنه الذين عرفوا حقيقتها وذاقوها !

وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع صاحب الدعوة [ ص ] طرقاً شتى من الإغراء - إلى جانب التهديد والإيذاء - ليلتقي بهم في منتصف الطريق ; ويكف عن الحملة الساحقة على معتقداتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ; ويصالحهم ويصالحونه على شيء يرتضيه ويرتضونه ! كما تعود الناس أن يلتقوا في منتصف الطريق عند الإختلاف على المصالح والمغانم وشؤون هذه الأرض المعهودة .

وهذه الوسائل ذاتها أو ما يشبهها هي التي يواجهها صاحب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل !

والنبي [ ص ] ولو أنه رسول , حفظه الله من الفتنة , وعصمه من الناس . . إلا أنه بشر يواجه الواقع الثقيل في قلة من المؤمنين وضعف . والله يعلم منه هذا , فلا يدعه وحده , ولا يدعه لمواجهة الواقع الثقيل بلا عون ومدد وتوجيه إلى معالم الطريق .

وهذه الآيات تتضمن حقيقة هذا العون والمدد والتوجيه:

(إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً).

من الآية 24 الى الآية 26

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَافُورًا (24) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26)

وهي اللفظة الأولى إلى مصدر التكليف بهذه الدعوة , وينبوع حقيقتها . . إنها من الله . هو مصدرها الوحيد . وهو الذي نزل بها القرآن . فليس لها مصدر آخر , ولا يمكن أن تختلط حقيقتها بشيء آخر لا يفيض من هذا ينبوع . وكل ما عدا هذا المصدر لا يتلقى عنه , ولا يستمد منه , ولا يستعار لهذه العقيدة منه شيء , ولا يخلط بها منه شيء . . ثم إن الله الذي نزل هذا القرآن وكلف بهذه الدعوة لن يتركها . ولن يترك الداعي إليها , وهو كلفه , وهو نزل القرآن عليه .

ولكن الباطل يتجح , والشر ينتفش , والأذى يصيب المؤمنين , والفتنة ترصد لهم ; والصد عن سبيل الله يملكه أعداء الدعوة ويقومون به ويصرون عليه , فوق إصرارهم على عقيدتهم وأوضاعهم وتقاليدهم وفسادهم وشرهم الذي يلجون فيه ! ثم هم يعرضون المصالحة , وقسمة البلد بلدين , والإلتقاء في منتصف الطريق . . وهو عرض يصعب رده ورفضه في مثل تلك الظروف العصبية !

هنا تجيء اللفظة الثانية:

(فاصبر لحكم ربك , ولا تطع منهم آثما أو كفورا).

إن الأمور مرهونة بقدر الله . وهو يمهل الباطل , ويملي للشر , ويطيل أمد المحنة على المؤمنين والابتلاء والتمحيص . . كل أولئك لحكمة يعلمها , يجري بها قدره , وينفذ بها حكمه . . (فاصبر لحكم ربك). . حتى يجيء مواعده المرسوم . . اصبر على الأذى والفتنة . واصبر على الباطل يغلب , والشر ينتفج . ثم اصبر أكثر على ما أوتيته من الحق الذي نزل به القرآن عليك . اصبر ولا تستمع لما يعرضونه من المصالحة والالتقاء في منتصف الطريق على حساب العقيدة: (ولا تطع منهم آثما أو كفورا). . فهم لا يدعونك إلى طاعة ولا إلى بر ولا إلى خير . فهم آثمون كفار . يدعونك إلى شيء من الإثم والكفر إذن حين يدعونك إلى الالتقاء بهم في منتصف الطريق ! وحين يعرضون عليك ما يظنونهم يرضيك ويغريك ! وقد كانوا يدعونه باسم شهوة السلطان , وباسم شهوة المال , وباسم شهوة الجسد . فيعرضون عليه مناصب الرياسة فيهم والثراء , حتى يكون أغنى من أغناهم , كما يعرضون عليه الحسان الفاتنات , حيث كان عتبة بن ربيعة يقول له: " ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ابنتي , فإنني من أجمل قريش بنات ! " . . كل الشهوات التي يعرضها أصحاب الباطل لشراء الدعاة في كل أرض وفي كل جيل !

(فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا). . فإنه لا لقاء بينك وبينهم ; ولا يمكن أن تقام قنطرة للعبور عليها فوق الهوة الواسعة التي تفصل منهجك عن منهجهم , وتصورك للوجود كله عن تصورهم , وحقك عن باطلهم , وإيمانك عن كفرهم , ونورك عن ظلماتهم , ومعرفتك بالحق عن جاهليتهم !

اصبر ولو طال الأمد , واشتدت الفتنة وقوي الإغراء , وامتد الطريق . .

ولكن الصبر شاق , ولا بد من الزاد والمدد المعين:

(واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا , ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا).

هذا هو الزاد . اذكر اسم ربك في الصباح والمساء , واسجد له بالليل وسبحه طويلا . . إنه الاتصال بالمصدر الذي نزل عليك القرآن , وكلفك الدعوة , هو ينبوع القوة ومصدر الزاد والمدد . . الاتصال به ذكرا وعبادة ودعاء وتنسيحا . . ليلا طويلا . . فالطريق طويل , والعبء ثقيل . ولا بد من الزاد الكثير والمدد الكبير . وهو هناك , حيث يلتقي العبد بربه في خلوة وفي نجاء , وفي تطلع وفي أنس , تفيض منه الراحة على التعب والضنى , وتفيض منه القوة على الضعف والقلة . وحيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل , وترى

من الآية 27 الى الآية 27

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَتَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا (27)

عظمة التكليف , وضخامة الأمانة . فتستصغر ما لاقت وما تلاقي من أشواك الطريق !

إن الله رحيم , كلف عبده الدعوة , ونزل عليه القرآن , وعرف متاعب العبء , وأشواك الطريق . فلم يدع نبيه [ ص ] بلا عون أو مدد . وهذا هو المدد الذي يعلم - سبحانه - أنه هو الزاد الحقيقي الصالح لهذه الرحلة المضنية في ذلك الطريق الشائك . . وهو هو زاد أصحاب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل . فهي دعوة واحدة . ملابساتها واحدة . وموقف الباطل منها واحد , وأسباب هذا الموقف واحدة . ووسائل الباطل هي ذاتها ووسائله . فلتكن وسائل الحق هي الوسائل التي علم الله أنها وسائل هذا الطريق .

والحقيقة التي ينبغي أن يعيش فيها أصحاب الدعوة إلى الله هي هذه الحقيقة التي لعنها الله لصاحب الدعوة الأولى [ ص ] هي أن التكليف بهذه الدعوة تنزل من عند الله . فهو صاحبها . وأن الحق الذي تنزلت به لا يمكن مزجه بالباطل الذي يدعو إليه الأثمون الكفار . فلا سبيل إلى التعاون بين حقا وباطلهم , أو الالتقاء في منتصف الطريق بين القائم على الحق والقائمين على الباطل . فهما نهجان مختلفان , وطريقان لا يلتقيان . فأما حين يغلب الباطل بقوته وجمعه على قلة المؤمنين وضعفهم , لحكمة يراها الله . . فالصبر حتى يأتي الله بحكمه . والاستمداد من الله والاستعانة بالدعاء والتنسيح - ليلا طويلا - هي الزاد المضمون لهذا الطريق . .

. . إنها حقيقة كبيرة لا بد أن يدركها ويعيش فيها رواد هذا الطريق . .

الدرس الرابع: 27 غفلة الكفار عن الآخرة ومحبتهم للعاجلة

ثم يمضي السياق في توكيد الافتراق بين منهج الرسول [ ص ] ومنهج الجاهلية . بما يقرره من غفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم , ومن تغاهة اهتماماتهم , وصغر تصوراتهم . . يقول:

(إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً) .

إن هؤلاء , القريبى المطامح والاهتمامات , الصغار المطالب والتصورات . . هؤلاء الصغار الزهيدى الذين يستغرقون فى العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً . ثقيلاً بتبعاته . ثقيلاً بنتائجه . ثقيلاً بوزنه فى ميزان الحقيقة . . إن هؤلاء لا يطاعون فى شىء ولا يتبعون فى طريق ; ولا يلتقون مع المؤمنى فى هدف ولا غاية , ولا يؤبه لما هم فيه من هذه العاجلة , من ثراء وسلطان ومتاع , فإنما هى العاجلة , وإنما هو المتاع القليل , وإنما هم الصغار الزهيدون !

ثم توحى الآية بغفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم . فهم يختارون العاجلة , ويذرون اليوم الثقيل الذى ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير , بعد الحساب العسير !

فهذه الآية استطراد فى تثبيت الرسول [ ص ] والمؤمنى معه , فى مواجهة هؤلاء الذين أوتوا من هذه العاجلة ما يحبون . إلى جانب أنها تهديد ملفوف لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل .

الدرس الخامس: 28 ضعف الكفار أمام قدرة الله

يتلو ذلك التهوين من أمرهم عند الله الذى أعطاهم ما هم فيه من قوة وبأس , وهو قادر على الذهاب بهم وتبديل غيرهم منهم . ولكنه يتركهم لحكمة يجرى بها قدره القديم:

(نحن خلقناهم وشددنا أسرهم , وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً) .

وهذه اللفظة تذكر هؤلاء الذين يعتزون بقوتهم , بمصدر هذه القوة , بل مصدر وجودهم ابتداء . ثم تطمئن الذين آمنوا - وهم فى حالة الضعف والقلّة - إلى أن واهب القوة هو الذى ينتسبون إليه وينهضون بدعوته . كما

من الآية 28 الى آخر السورة

تَحْنُ خَلْقَانَهُمْ وَسَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالطَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31)

تقرر فى نفوسهم حقيقة قدر الله وما وراءه من حكمة مقصودة , هى التى تجرى وفقها الأحداث حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

(وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً) . . فهم لا يعجزون الله بقوتهم , وهو خلقهم وأعطاهم إياها . وهو قادر على أن يخلق أمثالهم فى مكانهم . . فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومنته وهو قضاؤه وحكمته . .

ومن هنا تكون الآية استطرادا فى تثبيت الرسول [ ص ] ومن معه ; وتقريراً لحقيقة موقفهم وموقف الآخرين . . كما أنها لمسة لقلوب هؤلاء المستغرقين فى العاجلة , المغترين بقوة أسرهم , ليذكروا نعمة الله , التى يتبطرون بها فلا يشكرونها ; وليشعروا بالابتلاء الكامن وراء هذه النعمة . وهو الابتلاء الذى قرره لهم فى مطلع السورة .

الدرس السادس: 29 - 31 الهداية والتذكرة بيد الله يهبهما لمن يطلبهما

ثم يوقظهم إلى الفرصة المتاحة لهم , والقرآن يعرض عليهم , وهذه  
السورة منه تذكركم:

(إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) .

ويعقب على هذه اللفظة بإطلاق المشيئة , ورد كل شيء إليها , ليكون  
الاتجاه الأخير إليها , والاستسلام الأخير لحكمها ; وليبرأ الإنسان من قوته  
إلى قوتها , ومن حوله إلى حولها . . وهو الإسلام في صميمه وحقيقته:

وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً . .

ذلك كي تعلم قلوب البشر أن الله هو الفاعل المختار , المتصرف القهار ,  
فتتعلم كيف تتجه إليه وتستسلم لقدره . . وهذا هو مجال هذه الحقيقة  
الذي تجري فيه في مثل هذه النصوص . مع تقرير ما شاءه الله لهم من  
منحهم القدرة على إدراك الحق والباطل ; والاتجاه إلى هذا أو ذاك وفق  
مشيئة الله , العليم بحقيقة القلوب , وما أعان به العباد من هبة الإدراك  
والمعرفة , وبيان الطريق , وإرسال الرسل , وتنزيل القرآن . . . إلا أن  
هذا كله ينتهي إلى قدر الله , الذي يلجأ إليه الملتجئ , فيوقفه إلى الذكر  
والطاعة , فإذا لم يعرف في قلبه حقيقة القدرة المسيطرة , ولم يلجأ  
إليها لتعينه وتيسره , فلا هدى ولا ذكر , ولا توفيق إلى خير . . .

ومن ثم فهو:

(يدخل من يشاء في رحمته , والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً) . .

فهي المشيئة المطلقة تتصرف بما تريد . ومن إرادتها أن يدخل في رحمته  
من يشاء , ممن يلتجئون إليه , يطلبون عونه على الطاعة , وتوفيقه إلى  
الهدى . . (الظالمين أعد لهم عذاباً أليماً). وقد أملى لهم وأمهلم لينتهوا  
إلى هذا العذاب الأليم !

وهذا الختام يلتئم مع المطلع , ويصور نهاية الابتلاء , الذي خلق الله له  
الإنسان من نطفة أمشاج , ووهبه السمع والأبصار , وهداه السبيل إما إلى  
جنة وإما إلى نار . .